أثر تفاعل مكونات اللسان العربي في بناء المعنى في الخطاب القرآني

د. حسن بدوح
جامعة الحسن الأول
مختبر البحث في اللغة والأدب والبيئة
سطات،(المغرب)

ملخص المقال:

النص القرآني وحدة نسقية. يتطلب الكشف عنها، النظر إليه من خلال أبعاد ثلاثة هي:

1 ـ البعد المقاصدي: المرتبط بالعقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والسلوك.

2 ـ البعد اللغوي: المرتبط بمكونات اللسان: الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، ثم التداولية.

3 ـ البعد الجمالي : ويرتبط بالتكامل بين مكونات اللسان في بناء المعنى القرآني.

كيف تتضافر مكونات اللسان العربي ــ الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، والتداولية ــ لحمل تلك الأبعاد إلى الناس؟

Résumé

le texte coranique est une unité systémique. sa compréhension exige une vision ou lecture tridimensionnelle à savoir :

1- la dimension intentionnelle : tous ce qui est en relation avec les rites, la croyance, la foi , le comportement des musulmans, les pratiques, l'éthique ...

2- la dimension linguistique : en relation avec la langue , de point de vue phonétique , morphologique ,syntaxe, sémantique et pragmatique.

3- la dimension esthétique ayant trait avec l'intégralité et complémentarité des composantes langagières dans la construction de sens coranique

comment se réunissent ses composantes de la langue arabe : phonétique , morphologique ,syntaxe, sémantique et pragmatique pour apporter ses dimensions aux gents ?

1 – تفاعل مكونات اللسان العربي.

ما تزال الدراسات اللسانية تدرس مكونات اللسان، في أي لغة من اللغات، متفرقة، ومنفصلة عن بعضها. و يعود سبب ذلك، بالأساس، إلى ميل اللسانيين للتخصص وربما إلى التخصص الدقيق داخل التخصص العام. و يندر أن نجد دراسة لسانية لظاهرة من الظواهر اللغوية تتسم بالشمولية؛ حيث تتفاعل كل حقول البحث لتفسير ظاهرة لغوية في كل جوانبها في الآن نفسه.

و لذلك، فمن اللازم على اللساني أن يدرك تمام الإدراك مدى العلاقة والارتباط بين مختلف مكونات اللسان: الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والتداولية. وهذا يعني:

1- أن الفصل بين مكونات اللسان في الدراسات اللسانية عملية منهجية و إجرائية فقط تتعلق بمعرفة العلم لذاته، وليست هدفا بذاته؛ لأن الممارسة الواقعية للكلام لا تعرف هذا الفصل وإلاّ استحال إنجاز الكلام.

2- يجب البحث عن أثر تفاعل مكونات اللسان المختلفة والمتكاملة في معالجة أية قضية لسانية. وهذا يستلزم أنه لا ينبغي الفصل بين مكونات اللسان فصلا ينبئ عن استقلال أي واحد منها والاكتفاء به في معالجة أية قضايا لسانية.

لو أنعمنا النظر في في هذه الكلمات : اطَّرب ، واضطرب، واظطلم واصطبر، لتبين لنا بشكل جلي مدى التعالق بين الكونين الصوتي والصرفي؛ فأصل تلك الكلمات: اطترب، واضترب، واظتلم، واصتبر. ولدراسة هذه الظاهرة الصرفية، في اللسان العربي، دراسة دقيقة يجب الاعتماد على القوانين الصوتية، وأخذها في الحسبان؛ فالتاء تحول(تبدل) طاء في سياق وقوعها بعد حروف الإطباق في صيغة/ افتعل/ . وكذلك الأمر في مثل : قال وباع فأصلهما : قَوَلَ وبَيَعَ ، ولكن الواو والياء تقلبان ألفا إذا كانتا مسبوقتين بمصوت الفتحة وبعدهما مصوت واجب الحذف. يقول ابن جني في هذا السياق:" قال أبو عثمان: هذا باب ما تقلب فيه تاء افتعل عن أصلها، ولا يتكلم بها البتة كما لم يتكلم بالفعل من "قال" و "باع" وما كان نحوهن على الأصل. وذلك أنك إذا قلت" افتعل" وما تصرف منه، وكانت الفاء: صادا، أو ضادا، أو طاءً، أو ظاءً؛ فالتاء فيه مبدلة. وذلك قولك:" اصْطَبر، ويصطبر ومصْطَبِر، واضْطَرَب، يضطرب فهو مضطرب، واطَّلع فهو مُطَّلِع، واصْطَهر فهو مُصْطَهِر" فهذا الكلام الصحيح.

قال أبو الفتح: (...) والعلة في أن لم يُنْطَق بتاءِ" افتعل" على الأصل إذا كانت الفاءُ أحد الحروف التي ذكرها – وهي حروف الإطباق – أنهم أرادوا تجنيسَ الصوت، وأن يكون العمل من وجهٍ، بتقريب حرف من حرف"[1].

فمسائل الإعلال والإبدال في أمس الحاجة إلى معرفة جيدة بالأصوات العربية للاسترشاد بها في تحليلها إذا أردنا أن نعالجها معالجة لسانية صحيحة. وهناك تخصص جديد في

الدراسات اللسانية يمزج بين المكونين الصوتي والصرفي في التحليل اللساني يعرف بالتحليل الصوتي- الصرفي (morphophonemic analysis).

والشيء نفسه يكمن أن نلاحظه في الدراسة التركيبية(النحوية)؛ فهي لا تتم في صورتها المثلى ما لم يراع في دراستها التنغيم (intonation) والنبر(stress)، وغيرها من أنماط التطريز الصوتي(prosodies) التي يعتمد عليها التركيب في تحليل بعض مسائله وتفسيرها. فالتنغيم مثلا عامل مهم في تصنيف أنماط تراكيب الجمل، من إثباتية واستفهامية وتعجبية... بالرغم من افتقار الجملة إلى أدوات صرفية، من شأنها أن تساعد على تحديد نوعها كأدوات الاستفهام وصيغتي التعجب.

وفي الكثير من الأحيان، يكون التنغيم هو الفيصل في تحديد المعنى المقصود من الجملة الاستفهامية، حينما تخلو هذ الجملة من أدوات الاستفهام، أو حينما تشتمل الجملة على أداة استفهام، ولكنها خرجت عن الدلالة الأصلية إلى دلالة ضمنية يحددها المقام التداولي. ومثال ذلك: أن يتلفظ المتكلم بهذا الملفوظ في مقام يعز فيه وجود المعين:

- هل لي من معين؟

ليس المقصود هنا السؤال وإنما التمني:

- أتمنى معينا.
- ليت لي معينا.

أما بالنسبة للمكون الدلالي فيمكن أن نلاحظ في عدد من مفردات اللغة العربية أن تغيير الأصوات المصوتة القصيرة و الطويلة تساهم في إثراء مفردات المعجم العربي ومثال ذلك:

- الخُطبة (بِضَمّ الخاء): الكلام المنثور، يُلْقِيه الخطيبُ على الناس.
- الخِطبة (بكسر الخاء): طلب المرأة للزواج.
- الخُصْلة (بضمّ الخاء): الشّعرُ المجتمع جمعها (خُصَلٌ).
- الخَصْلة (بفتح الخاء): صفة في الإنسان ذميمة أو حميدة، وجمعها (خِصال).
- العَنَان (بفتح العين): السّحاب وما يبدو للنّاظر منها (أعنان السماء).
- العِنان (بكسر العين): لِجام الفرس، وجمعها (أعِنّة).
- الفَطْر (بفتح الفاء): الشّقّ.
- الفِطر (بكسر الفاء): الإفطار، وعيد الفِطْر.

الفُطر (بضمّ الفاء): النّبات المعروف.

- الكَلَفُ (بفتح اللام): النّمَش في الوجه.
- الكَلِفُ (بكسر اللام): العاشق المُحِبُّ.
- البِرُّ (بكسر الباء): الطّاعة.

- البُرُّ (بضم الباء): القَمْح.
- البَرُّ (بفتح الباء): ما انبسط من سطح الأرض، ولم يُغَطِّه الماء.

و يكن تبين تفاعل مكونات اللسان واتصالها من خلال هذا الملفوظ، الذي يتلفظ به المتكلم موجها كلامه إلى مخاطب بعثه في مهمة وتأخر في مغادرة مكانه:

- أمازلت لم تذهب بعد؟

ففي هذه الجملة تتفاعل كل مكونات اللسان : الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، والتداولية، و تتصل في تكوينها وبناء معناها.

تعاضد المكونين الصوتي والصرفي:

- تتكون هذه الجملة من سلسلة من الفونيمات الحاملة في ذاتها لقيم خلافية تميزها عن غيرها. ويمكن أن نميز فيها بين الصوائت والمصوتات. والنسق العربي لا يقبل البدء بصامتين ساكنين ولا يقف على متحرك. كما يمكن أن ندرس السمات المميزة للفونيمات ونقول، مثلا، في فونيمات الجذر (ذ، ه، ب): إن الذال: صوت أسناني ، رخو ، مجهور. والهاء: صوت حنجري، رخو، مهموس. والباء: صوت شفهي، شديد، مجهور.
- تنتظم الفونيمات في مورفيمات وصيغ صرفية
- لهذه السلسلة من الفونيمات والمورفيمات قالب إيقاعي تنتظم فيه: النبر والتنغيم.
- احترمت السلسلة قواعد التأليف التي تستحسن تباعد مخارج الأصوات وتستقبح التقارب بينها في تكوين الكلمات.

يتبين ما سبق تلازم المكونين الصوتي والصرفي؛ حيث ننتقل من الأول لنصل إلى الثاني.

- **تعاضد المكونين الصرفي والتركيبي:**

انتظام الأصوات في صيغ صرفية وكلمات ،كما مرّ بنا ، في حاجة إلى عملية تدخل المكون التركيبي، لأننا لا نتواصل بكلمات مستقلة بذاتها ولكننا نتواصل بجمل ونصوص ... فبمساعدة التركيب تأخذ كل كلمة وظيفتها داخل الجملة(الفاعلية، المفعول، ...) بحسب نوع الجملة: فعلية، أو اسمية. ويتدخل المكون الصوتي(النبر والتنغيم) في تحديد دلالات الكلمات والجمل في مقامات محددة.

- **تعاضد المكونين التركيبي والدلالي:**

يعمل المكون التركيبي على توزيع الكلمات ونظمها في جمل ، ومن خلال العلاقة التي تربط بينها يتدخل المكون الدلالي ليمنحها دلالة بالنظر إلى العلاقات التمثيلية القائمة بين

الكلمات والأشياء التي تمثلها. ويؤدي أي تغيير لمواقع الكلمات في الجملة بالتقديم أو التأخير... إلى تغيير دلالة الجملة ككل.

- **تعاضد المكونين الدلالي والتداولي**

يحصر المكون الدلالي موضوعه في دراسة العلاقات التمثيلية القائمة بين العبارات الصحيحة نحويا والأشياء التي تمثلها تلك العبارات. أما المكون التداولي فقد وجه بحثه إلى دراسة العلاقات التي تنشأ- أثناء الكلام- بين العبارات ومستعمليها، بعد أن تكون تلك العبارات قد استوفت شروط الصحة النحوية والمقبولية الدلالية. ويستند المكون التداولي في تحديد معاني الملفوظات على المقام التداولي وعلى الاستدلال العقلي لتحديد مقاصد المتكلمين التي عادة ما تتجاوز الدلالة المعجمية للكلمات إلى معاني يقتضيها المقام التداولي.

ففي هذا الملفوظ السابق ذكره:

- أما زلت لم تذهب بعد؟

فإن المخاطب، واعتمادا على المقام التداولي، سيستدل على أن المتكلم لا يسأله لأنه عارف بمضمون الجواب وإنما قد يقصد الاستبطاء أو الأمر...

واضح مما سبق، أن العلاقة بين مكونات اللسان قائمة على التعاضد والتفاعل. وهذا يمنحها نظاما يتمكن الناس، من خلاله، من التواصل والتفاهم.

2 - أثر تفاعل مكونات اللسان العربي في بناء المعنى في الخطاب القرآني.

يمكن قراءة القرآن الكريم وتدبره، باستعمال الأدوات اللسانية الحديثة شريطة احترام هذه القراءة لخصوصيات القرآن الكريم وتحقيق مقاصده ككتاب هداية، يبين للناس ما يحقق لهم الصلاح في الحال والفلاح في المآل.

يمكننا تحليل الخطاب القرآني من خلال محورين هما: المحور المركبي، والمحور الاستبدالي. فعلى مستوى المحور الاستبدالي paradigmatque فالكلمات خارج الخطاب ترتبط فيما بينها على مستوى الذاكرة بقواسم مشتركة في شكل مجموعات تحكمها علاقات مختلفة. وهي علاقات تقوم على صلة الكلمة (الجملة، الآية)الحاضرة في الجملة (الآية، السورة) بغيرها من الكلمات الغائبة عنها والمترابطة معها وهذا ما يسمى بتفسير القرآن بالقرآن، وتأويل القرآن بالقرآن.

ونهتم في المحور المركبي syntagmatique بالعلاقات النحوية التي تربط بين الكلمات داخل الخطاب بفعل الطبيعة الخطية لفعل التلفظ(القول). ففي النص القرآني تتراكب الكلمات في الجمل، والجمل في الآيات، والآيات في السور، والسور في القرآن. وهذا يمنح القرآن تماسكه.

ويمكن استثمار ما سبق ذكره: المحورين المركبي والاستبدالي، والمكونات اللسانية السالف ذكرها، لتبين تجليات تعاضد مكونات اللسان العربي، في بناء المعنى في الخطاب

القرآني. وسنأخذ نموذجا للتطبيق من قوله تعالى: "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ(18)"[2] وليكن منطلقنا قوله تعالى:" صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ".

يمكن النظر إلى الفونيمات (**المكون الصوتي**)المكونة للكلمات الثلاث الأولى ودراستها من حيث سماتها المميزة:

1- **الصوامت:**

- ص: صامت، رخو، مهموس، صفير، استعلاء، إطباق
- م: صامت، شفهي، متوسط، مجهور، أنفي
- ب: صامت، شفهي، شديد، مجهور
- ك: صامت، طبقي، شديد، مهموس
- ع: صامت، حلقي، رخو، مجهور
- ي: شبه صائت(شبه صامت)، غاري، متوسط، مجهور

ويمكن التوقف عند بعض الدلالات التي تحملها بعض هذه الفونيمات(**تعاضد المكون الصوتي والمكون الدلالي**) وربطها بالمعنى الأساس والكلي للآية؛ ولنأخذ مثالا على ذلك الفونيمات الأول لهذه الكلمات أي: الصاد والباء العين. وهذه السمات المميزة لكل فونيم قد تساعدنا في الكشف عن معاني هذه الكلمات وعن معنى الآية ككل[3] ، لأن المعنى هو محور الأهتمام في جميع العلوم التي تهتم بدراسة مكونات اللسان: الصوتيات (الفونيتيقا) و الصوتيات (الفونولوجيا) و الصرف والتركيب وعلم الدلالة والتداولية.

وبالرجوع إلى السمات السابقة الخاصة بفونيم (الصاد)، فسنجد أن صفات القوة فيه أكثر أي: (صفير، استعلاء، إطباق). وسمة الصفير تدل لغة: على التصويت بالفم والشفتين.[4] واصطلاحا: على الصوت الملازم لحروف الصفير (ص، ز، س) ويدل على قوتها في السمع. فصوت الصاد إذن، يحمل، من الناحية الإيحائية والسميائية، دلالة تتناسب مع معنى التصويت و حاسة السمع المعطلة في هذا المقام(المنافقون).

وقد ذهب ابن جني إلى إمكانية التعرف على دلالة الكلمة، ولو جزئيا، من خلال أصواتها حتى وإن لم نكن من أهل اللغة. و مثال ذلك الفرق بين (الخضم) و (والقضم)، فرغم دلالتهما على الأكل، غير أن الخضم لأكل الرطب والقضم لأكل الصلب.[5] ويمكن تبين ذلك أيضا في تحليل القصائد الشعرية؛ حيث يمكننا الربط بين الأصوات الأكثر حضورا في القصيدة وبين الغرض العام للقصيدة. فحينما يكثر الشاعر، مثلا، من استعمال الأصوات الصفيرية والمصوتات الطويلة ،عادة ما يكون الجو العام في القصيدة ميالا إلى التعبير عن عاطفة جياشة وجو جنائزي وأنين ... ويساعدنا في ذلك أيضا إيقاع القصيدة(القافية، الروي، التفعيلة...).

وفي الكلمة الثانية(بكم): ففي فونيم (الباء) تطغى سمات القوة أكثر أي(شديد، مجهور، قلقلة). والوقوف عند صفتي(شفهي، وقلقة) في الباء فيه إيحاء إلى النطق والفم؛ فالقلقلة تعني اجتماع صفة الشِّدة التي تمنع جريان الصوت، وصفة الجهر التي تمنع جريان النفس، وهاتان السمتان تسببان انزعاجا لجهاز النطق يعالج بالقلقلة. وتحقق حروف القلقلة بالتباعد بين طرفي جهاز النطق بدل تصادمهما دون أن يصاحب ذلك انفتاح للفم أو ضم للشفتين أو انخفاض للفك السفلي. والباء من الأصوات الأولى التي ينطق بها جميع الأطفال بلا استثناء.

أما بالنسبة لصوت العين في الكلمة الثالثة: فمن سماته(حلقي، رخو، مجهور) ورغم أن سمات الضعف فيه أكثر(رخو، مستفل، منفتح) إلا أن سمة الجهر التي تميزه عن الهاء (المهموس) تجعل من العين صوتا يتميز بالبروز والظهور. والتلفظ بهذا الصوت مفردا يحمل إشارة مباشرة إلى حاسة الإبصار وهي العين. كما أنّه يعني، في أنظمة أخرى أشياء كثيرة لها ارتباط بحياة الإنسانية ذاتها: العين التي ينبع منه أساس الحياة وهو الماء، وعين المِلكيّة إذا كانت من النقود والدراهم، وأعيان الناس، أي المتميّزون منهم... فحرف "ع" في رسمه واسمه ، يعنيان كلّ ذلك وأشياء أخرى.

تبين من خلال ما سبق، أن فونيمات(الصاد، والباء، والعين) التي تبتدئ بها الكلمات قيد الدراسة، تتميز بالظهور والبروز، وأنها من الناحية الإيحائية والسميائية، تحمل دلالات على معنى الكلمات الثلاث أو الحواس الثلاث، وتلك الدلالات والمعاني احتمالية لا ندعي قطعيتها.

2- الصوائت:

ويمكن تأكيد دلالات الظهور، والبروز، والشدة، والقوة التي بيناها، من خلال سمات الصوامت، بشكل أكثر جلاء وتأكيدا، من خلال دراسة الصوت الصائتي الطاغي على التشكيل الصوتي للكلمات الثلاث، قيد الدراسة والتحليل، وهو الصائت الضمة.

فمن الدلالات المعنوية للضمة وأسرارها البلاغية، أنها تنبئ عن التمكن والقوة والدوام والثبات.

كما تدل على الجمع والقوة واللزوم كما يظهر من صيغة (فُعْل)(**تعاضد المكون الصوتي والمكون الصرفي**). وقدجعلت العرب الضمة علامة العمد لقلتها حيث لا يكون الفاعل إلا واحداً، والفتحة علامة الفضلات لكثرتها.

ومن السمات المميزة للصوت الصائت الضمة (خلفي، عال، مستدير)، ويتم إنتاجه عندما يرتفع اللسان خلف التجويف الفموي، حيث يكون إغلاقا دون إعاقة الهواء، كما تتدخل الشفتان في نطق هذا الصائت(طويلا كان أو قصيرا). والأصوات الخارجة من خلف التجويف الفموي تحتاج إلى جُهدٍ كبير لدفعها والنطق بها، وهذا مما أعطى الضّمّة القوّة والشدّة. فوجودها دليل على قوّة الصوت والصِّيغة معا، وتأتي على مستوى التركيب مقرونة بالإسناد. ويتضح ذلك جليا في صيغة الكلمات الثلاث، وهي صيغة جموع كثرة، أحد أنواع جمع التكسير

على وزن فُعْلٌ، وهو جمعٌ لِما كان صفةً مشبهةً، على وزن "أفعلَ" أو "فَعْلاءَ"، مثل: أَحْمَرٌ وحَمْرَاء جمعه: حُمْرٌ، أَبْكَمٌ وبَكْمَاء ← بُكْمٌ... ويفيد هذا الجمع تكثير القيام بالفعل(**تعاضد المكون الصرفي والمكون الدلالي**). **والصمم**: داء يحصل في الأذن يسد العروق فيمنع من السمع، وأصله من الصلابة، قالوا: قناة صماء، وقيل: أصله السد، وصممت القارورة: سددتها. و **البكم**: آفة تحصل في اللسان تمنع من الكلام.. **والعمى**: ظلمة في العين تمنع من إدراك المبصرات، والفعل منها على فعل بكسر العين واسم الفاعل على أفعل وهو قياس الآهات والعاهات.[6]

3- المقاطع الصوتية:

المقطع الصوتي وحدة من وحدات الكلام، وغالبا ما يكون أكثر من صوت واحد وأصغر من كلمة كاملة.

تتكون كل كلمة من الكلمات الثلاث (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) من مقطعين صوتيين متماثلين يتكونان من: **ص مص ص**:

- صُمٌّ : صُمْ + مُنْ
- بُكْمٌ: بُكْ + مُنْ
- عُمْيٌن: عُمْ + يُنْ

ويتميز هذا المقطع بـــــ:

- التشابه في البنية: **ص مص ص**، وهذا التشابه في بنية مقاطع الكلمات يوحي بدلالات مرتبطة بسياق الحديث عن المنافقين؛ فالتكرار يفيد التأكيد و الاستمرار و هذا ما يستفاد من تتابع الصفات دون عطف لوجود الصفات مجتمعة فيهم واستمرارهم في الضلالة، والدليل قوله : " فهم لا يرجعون" أي : عن الضلالة. فالتكرار هنا إذن ظاهرة موسيقية (إيقاعية) ومعنوية تهدف إلى الاقناع من خلال إلباس الصيغة ايقاعات نغمية متكررة جميلة تهدف الى استمالة السامع.

- هو مقطع مغلوق لأنه ينتهي بصامت: وقد يمنحنا هذا أيضا إشارة إيحائية وسميائية مفادها أن الله قد أغلق قلوب الكفار والمنافقين، وختم عليها وعلى أسماعهم وجعل على أبصارهم غطاء فلا يرون آيات الله في الكون ليتعظوا بها، ويؤمنون بالله وبوحدانيته ولو ادعوا ذلك نفاقا. وهذا ما نجده في سورة البقرة نفسها يقول الله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8)"[7]. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله والطبع. فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر عنها مخلص"[8] .

-

- يتكون هذا المقطع من ثلاثة أجزاء صوتية (فونيتيقية) هي البداية(onset) والنواة أو القمة(nucleurs) والذيل أو النهاية (coda) ويشرف على القمة والذيل القافية(rhym) ويمكن التمثيل لبنية لهذا المقطع على شكل مشجر[9] كما يلي:

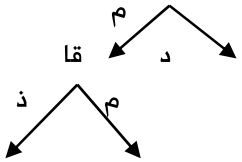

- ففي المقطع صُمْ: يمثل الصاد البداية وتمثل الضمة القمة ويمثل الميم الذيل
- في المقطع مُنْ : يمثل الميم البداية، وتمثل الضمة القمة ويمثل النون الذيل....

وهكذا نجد بدايات مقاطع الكلمات السابقة على الشاكلة الآتية: في **البداية:** الصوامت(ص، م، ب، م، ع، ي) وفي **القمة:** الصائت (الضمة) وفي **الذيل:** (م، ن، ب، ن، م، ن،)، ونلاحظ أن صائت الضمة يتوسط كل المقاطع وقد سبق أن تحدثنا عن قيمة الضمة المعنوية والدلالية.

كما نلاحظ أن صوامت الذيل، في هذه المقاطع المشكلة للكلمات (مقطعين في كل كلمة)، متشابهة أي : الميم في المقاطع الأولى والنون في المقاطع الثانية باستثناء المقطع الأول من (بُكْ + من) الذي ينتهي بـ (ك) ، بل إن الميم والنون يتشابهان في سمات (التوسط، والجهر، والأنفية) . ونجد هذا التناسب أيضا بين صامت البداية وصامت الذيل في المقطعين (صم + من) في كلمة صُمٌ ،والمقطع(من) من كلمة بُكْمٌ ، والمقطع(عم) من كلمة (عُمْيٌ) أي بين بداية وذيل أربعة مقاطع من أصل ستة.

ويمكن أن نضيف لهذا التناسب الصوتي العجيب ظواهر صوتية أخرى كالنبر والتنغيم ... ودورها الدلالي والوظيفي؛ فقد تؤدي من المعاني ما تعجز عن أدائه الكلمات. ومما لا شك فيه أن الجانب الإيقاعي مهم في قراءة القرآن وكلما تمت العناية به كان مفيدا في إبراز المعاني والتأثير(ترغيبا وترهيبا).

وفي تعاضد الصرف والتركيب، نلاحظ أن هذه الكلمات(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) في تراكيب جمل اسمية ،كلٌّ منها خبرٌ لمبتدأ واحد محذوف، تقديره: هُمْ(في تأويل من قدر أن المحذوف هو المبتدأ). و للحذف دلالات، في اللغة العربية، وجمالية، و يقع على الصوت فالكلمة فالجملة . أما مزاياه فنذكر منها:

1ـ إيجاز الكلام.

2ـ التأثير على المخاطب و إثارة فكره وخياله بتشغيله لآلية الاستدلال على جزء المعنى الحذوف من الكلام.

3ـ الزيادة في المعنى وتقوية قدرة الملفوظات على إيصال المعنى المراد.

4ـ التحقير

وهذه المعاني مقصودة في الآية؛ ونمثل لذلك بالتحقير فقد حذف المسند إليه (هم) الذي يعود على المنافقين تحقيرا لهم **(التركيب والدلالة).**

ومن دلالات الجملة الاسمية، في أصل وضعها، ثبوت الوصف لموصوفه، و الاستمرار والدوام؛ فالمنافقون والمشركون هم صُمٌّ عن سماع الحق سماع تدبر، بُكْم عن النطق به، عُمْي عن إبصار نور الهداية؛ لذلك لا يستطيعون الرجوع إلى الإيمان الذي تركوه، واستعاضوا عنه بالضلال. ويمكن أن نشير هنا أيضا إلى التنكير البارز في الكلمات الثلاث والبحث عن دلالة النكرة في اللغة العربية، وربها بالمعنى في الآية.

وإذا انتقلنا إلى الدراسة **الدلالية والتداولية** يمكن أن نقول اختصارا : سنتجاوز الدلالة المعجمية لهذه الكلمات وإن كانت واردة، إلى المعنى المقاصدي الذي أراده الله تعالى في وصفه لحال المنافقين والكفار فهم «صمٌّ» لا يسمعون الهدى «بكم» خرس عن الخير فلا يقولونه «عميٌ» لا يبصرون الهدى فلا يرونه «فهم لا يرجعون» إلى الإسلام و لا يتوبون[10]لأنهم في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى : "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"[11] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.ويمكن أن نستثمر في هذا المستوى كل الأمور التي ترتبط بالمقام التداولي: المتكلم، والمخاطب، والزمان، والمكان، والظروف الاجتماعية، والثقافية... في تأويل الآية الكريمة.

خاتمة:

تبين، من خلال التحليل السابق، أن النص القرآني يتسم بالتميز؛ حيث إن قراءته قراءة تدبر، تقتضي تجاوز نظرة التفريق المتوارثة بين مكونات اللسان، التي أسستها الدراسات اللسانية ومناهج تحليل الخطاب. وقد تجلت لنا تلك السمة بوضوح من خلال الآية الشريفة التي اجتمع فيها ما يسمى في أدبيات لسانيات النص، بالاتساق(البناء التركيبي) ، والانسجام(البناء الدلالي ـ التداولي).

الهوامش :

[1]- ابن جني: المنصف، شرح كتاب التصريف، تحقيق: إبراهيم مصطفى و عبد الله أمين، إدارة إحياء التراث القديم. ط: سنة: 1954. ج 1، ص.ص: 324– 325.

[2] - البقرة:17–18

[3] http://www.ahlulbaitonline.com/karbala/New/html/research/research.php?ID=39 -

[4] - مصطفى إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط. المكتبة الاسلامية، تركيا. ط 2، السنة: 1772. ص: 516.

[5] - ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص. تحقيقك محمد علي النجار. المكتبة العلمية، بيروت. ج 2 ، ص: 157.

[6] - الأندلسي، أبو حيان : تفسير البحر المحيط. المحقق: عادل أحمد و علي معوض. الناشر: دار الكتب العلمية، سنة 1993. ط1. ج 1. ص: 208.

[7] - البقرة : الآيات (6 و 7و 8)

[8] - الحافظ، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. المحقق: سامي السلامة. الناشر: دار طيبة. السنة: 1999. المجلد الأول، ج 1. ص: 175.

[9] - السغروشني، إدريس: مخل إلى الصواتة التوليدية، دار توبقال للنشر. الطبعة الأول. السنة: 1987. ص: 66.

[10]- الحافظ، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. المجلد الأول، ج 1. ص: 189.

[11] - الحج : 46.